

د. تبال نادية
أستاذة محاضرة
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

النفور عند المتعلمين من مادة النحو وأسبابه

سوف نركز في هذه المداخلة، إن شاء الله، حول عيوب المنهج التقليدي في تدريس اللغة العربية، فاهتمامنا إذا سيقصر على الجانب السلبي في هذا المنهج لأن اكتشاف المرض - كما يقال - بداية الشفاء، ولا نريد أن نتحدث عن المزايا، أو إيجابيات هذا المنهج، فيكفيه فضلا أنه حافظ على العربية من كل شائبة وأنها والحمد لله، قد وصلتنا بقواعدها وخصائصها اللغوية والنحوية سليمة صحيحة.

ولكن ومع ذلك هناك بعض العيوب والنقائص التي تخللت هذا المنهج مما ظهر أثره واضحا على التراجع الذي وجدناه عند الناشئة ونفورهم منه وإعراضهم عنه، لا لشيء إلا لأنهم وجدوا فيه من كثرة تأويل وتقدير مما لا يتناسب مع العصر الذي يعايشونه، فهذا المنهج وإن ناسب ووافقت خصائصه فترة زمنية من حياة الأمة العربية، إلا أنه لم يعد يوافق ظروف عصرنا وهو العصر الموسوم بالسرعة، فلم يعد في الوقت سعة ومجال لتباحثه والخوض فيه، ذاك الخوض والبحث الذي عهدناه عند القدامى ومن هنا كان هذا النفور.

لا بد لنا من أن نشير إلى أن النحو لم يعد يلقي من الدارسين والمثقفين الذين اجتازوا مراحل السنة إقبالا عليه واحتفاء به ولا يظفر من هؤلاء وهؤلاء بما تظفر به ألوان الدراسة العلمية والأدبية من العناية والولاء إلا عند طائفة قليلة ممن تضطربهم الدراسة التخصصية في بعض الكليات إلى أن يعانون النحو على أنه مادة منوطة بهم، مفروضة عليهم فيعالجوا دراسته في مرارة واستكراه يحملون عليه حملا كأنه حبال شر لا بد منه⁽¹⁾.

وأول ما يلاحظ هو كثرة الأخطاء النحوية في تعبيرات المتعلمين والمتخرجين والواقع أن أسباب هذا الضعف إنما تعزى إلى أمور عديدة من أهمها:

- 1- المادة النحوية نفسها وما فيها من اضطراب ومماحكات وتأويلات والواقع أن للنحو فلسفة خاصة قد تناسب الخاصة ممن كرس حياته لهذه المادة بحثا ودراسة لكنها لا تلائم العامة الذين لا يحتاجون من النحو إلا إلى ما يقوم الألسنة من الزلل والخطأ.
 - 2- طريقة التدريس، فاللغة العربية ليست مخدمومة تربويا، وأن طرق تدريسها تقليدية أنهكت المعلم تلقينا والمتعلم حفظا.
 - 3- الاضطرابات والبلبلية في تقرير الموضوعات النحوية في المناهج، وعدم بنائها على أسس علمية موضوعية.
 - 4- انتشار العامية حتى بين أوساط المعلمين وتلك طامة كبرى على العربية.
- وهناك آراء كثيرة لباحثين ودارسين اجتهدوا للبحث في أسباب هذا التراجع الذي أصبح بيّنا عند المتعلمين. فمن هؤلاء الدارسين نذكر:
- الأستاذ عباس حسن الذي يؤكد على أن أهم مشكلة تواجه المتعلمين في النحو تعدد الآراء في المسألة الواحدة واختلاف الأحكام فيها، حتى يستطيع الباحث أن يرى الرأي فيقول وهو آمن: "أن هناك رأيا آخر يناقضه من غير أن

يكلف نفسه مشقة الاطلاع والجري وراء هذا النقيض، ذلك أنه يعلم من طول ممارسته النحو، والنظر في قواعده أن الواحدة منها لا تخلو من رأيين، أو آراء متعارضة وهذا الخلاف والتفرق في كثير من القواعد النحوية، كان من أظهر العيوب فيها وأكبر العقبات في تحصيلها والوصول إلى ضوابط محددة سليمة⁽²⁾.

وهذا باحث آخر وهو الدكتور إبراهيم بيومي مذكور يقول في محاضرة له بعنوان "العربية بين اللغات العالمية الكبرى" والتي ألقاها في جامعة بيروت العربية في أبريل عام 1973 يشير إلى أن فلسفة النحو لا تلائم العامة، فهاهو ذا يقول: "ولم يصادف نحو من العناية ما صادف النحو العربي، تعددت مدارسه بين بصرية وكوفية، بغدادية وأندلسية، ووضعت فيه كتب شتى بين منثور ومنظوم، وهو دون نزاع أثر رائع من آثار العقل العربي لم يرق إلى مستواه واحد من نحو اللغات القديمة لا في اليونانية واللاتينية بين اللغات الهندو أوروبية ولا في السيريانية والعبرية بين اللغات السامية إلا أن فيها توسعا زائدا أو فلسفة إن لاءمت الخاصة فإنها لا تلائم العامة⁽³⁾".

والنتيجة التي نخرج بها من ذلك كله هو أن الإعراض الذي لمسناه جليا عند الكثير من المتعلمين اتجاه النحو، ونفورهم من البحوث اللغوية، إنما مرده كثرة التأويلات والتقديرات التي لجأ إليها الكثير من القدامى في تدريس المادة النحوية فكان ذلك سبب الإحساس بصعوبتها.

لذلك لجأ كثير من الباحثين، إلى الدعوة إلى تحديث منهج تدريس النحو العربي، والاهتمام بما يسمى النحو الوظيفي فحسب لما في ذلك من أثر عظيم في التخفيف من حدة المشكلة القائمة وذلك معناه أن يقتصر في تدريس النحو على ما يفيد في قراءته وكتابته وما يستمع إليه، مع التبسيط والاختصار والابتعاد قدر المستطاع عن تلك الخلافات التي كانت بين المدارس النحوية وما عرف عنها من تشعب في الآراء، لما فيها من تشتت لذهن المتعلم، ويكتفي بتزويد الطالب بما هو ضروري من قواعد اللسان

العربي لا بما هو كماله، وليس في ذلك ما يمس بجوهر المادة النحوية ولبها، وإنما هو مجرد مسعى لتطوير وإصلاح تعليم النحو، والعمل لتحقيق مناهج ميسرة في تدريسه، وذلك عن طريق وضع كتب منهجية. مدرسية وجامعية، وعدم الاكتفاء بكتب القدامى، وليس في هذا ما يهون من قيمة تلك الكتب ومؤلفيها الأجلاء، ولكن تعقيد المادة النحوية فيها وقدامة عباراتها وغرابتها هو ما يشكو منه الكثير من المعلمين، وهو ما ينبغي أن يتجاوز في النحو التعليمي ليترك ذخيرة للنحو العلمي⁽⁴⁾.

كل ذلك حتى يتأتى لنا تجاوز ذلك الجفاف، وتلك الصعوبة في الفهم والاستيعاب التي يشكو منها الكثير من الطلاب.

فقد أخطأ الكثير من المعلمين حين غالوا بالقواعد، واهتموا بجمع شواردها والإلمام بتفاصيلها، فأثقلوا بذلك كاهل التلاميذ، وهم يظنون أنهم بذلك يمكنون هؤلاء المتعلمين من لغتهم ويقدرونهم على إجادة التعبير والبيان⁽⁵⁾.

كما ينبغي أن يهتم في الأخذ من القدامى ما نعين به المتعلم على استيعاب المادة والانجذاب لها، والعمل على تفادي تلك الأعمال التي تزيد في تعقيد مادة النحو عند الطلبة، فهناك من القدامى من تعمد مثل هذا التعقيد والإغراب، وخير مثال على ذلك، الأخفش الذي عرف بميله إلى الإغراب في أسلوبه لدرجة أن يجعل ما يكتبه غير مفهوم، وقد لأمه الجاحظ على ذلك لوما شديدا ودعاه إلى تبسيطه فكان جوابه "أنا رجل لم أضع كتبني هذه لله، وليست هي كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجتهم إلي فيها، وإنما كانت غايتي المنالة وما كسبت إلا في هذا التدبير، إذ كنت إلى التكسب ذهبت"⁽⁶⁾.

وهكذا صرح الرجل بميله إلى التصعيب والتعقيد فهو يريد المقابل، لقد تعمق في علوم اللغة وأدرك دقائقها لكنه أراد أن يسترزق من ورائها، فهدفه إنما هو التكسب أولا ثم التعلم ثانيا.

ومثل هذا التعقيد لأجل التعقيد هو الذي نريد تلافيه والابتعاد عنه، للابتعاد عن الوعود التي يجدها المتعلم في الإحتكاك بمثل هذه الكتب التي قد تبتعد بالمتعلم عن المبتغى وهو التيسير على الطالب وتقريبه من النحو.

إن الدعوة إلى التخفيف على دارسي النحو ليس بالأمر المستحدث وإنما هي دعوة قديمة فقد كانت أول محاولة ظهرت في هذا المجال هي محاولة خلف بن حيان الأحمر البصري، الذي ألف رسالة أسماها "مقدمة في النحو" يقول في بدايتها "لما رأيت النحويين وأصحاب العربية أجمعين قد استعملوا التطوير وكثرة العلل، وأغفلوا ما يحتاج إليه المتعلم المتبلغ في النحو من المختصر والطرق العربية، والمأخذ الذي يخفى على المبتدئ حفظه ويعمل في عقله، ويحيط به فهمه أمعنت النظر في كتاب أولفه، وأجمع في الأصول والأدوات والعوامل على أصول المبتدعين ليستغني به المتعلم عن التطويل، فعملت هذه الأوراق ولم أدع فيها أصلاً، ولا أداة ولا حجة ولا دلالة إلا مليتها فيها فمن قرأها وحفظها وناظر عليها علم أصول النحو مما يصلح لسانه في كتاب يكتبه، أو شعر ينشده أو خطبة يلقيها، أو رسالة يؤلفها"⁽⁷⁾.

وهذا عمرو بن بحر الجاحظ في إحدى رسائله يذم ما يجده عند النحويين من تصعيب في بعض القضايا النحوية، ويرى أن ذلك إنما فيه من مضيعة الوقت الشيء الكثير، فيقول داعياً إلى ضرورة التخفيف في درس النحو خاصة على المبتدئين في هذا المجال مايلي:

"أما النحو فلا تشغل قلبه - أي الصبي - إلا بمقدار ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به في رواية المثل الشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع، وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجازة الاقتصاد فيه من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور، ومن ليس له حظ غيره، ولا معاش سواه، وعويص النحو لا يجدي في المعاملات، ولا يضطر إليه في شيء"⁽⁸⁾.

وما محاولة الزمخشري في كتابه "المفصل" سوى اجتهاد منه لتبسيط المادة النحوية، وتذليل صعابها حتى يسهل على الدارس تقبلها فتستساغ في الأذهان⁽⁹⁾.

ونفس الدعوة الى التيسير نجدها تتكرر عند الكثير من الباحثين المحدثين وذلك بغية تخليص القواعد النحوية من كثرة ما فيها من تأويلات وتقديرات وموضوعات غير وظيفية، والاقتصار على النحو الوظيفي الذي يفيد المتعلم في عمله الاتصال اللغوي، ومن أصحاب دعوة التيسير هذه نذكر الدكتور جواد علي الطاهر الذي يرى أنه "لو تتألف لجنة تغار على اللغة فتشطب بالقلم الأحمر على كل مادة في منهج القواعد لا يحتاج إليها الإنسان لدى القراءة والكلام والكتابة، فإنك ستندهش لما ترى من مواد ميتة، وستعذر الطلبة إن هم قصرُوا في فهمها أو كرهوا لغتهم من أجلها، ثم تمزق الصفحات الكثيرة المأهولة بالموت من كتب القواعد ويبقى بعد ذلك اللباب وهو الخير المفيد الذي يحس الطالب بنفعه، ويسهل عليه فهمه ويمكنه الاستفادة منه، ذلك لأن الحاجة الى النحو محدودة جداً، أما هذا التطويل والتعقيد فهو لغو وشغل قوم لا شغل لهم، وهو عامل تعويق وتوهين وإضاعة عمر"⁽¹⁰⁾.

فهي دعوة يؤكد فيها جواد علي الطاهر ضرورة التخفيف على الدارسين في النحو بشطب تلك المادة الغزيرة من الكتب النحوية مما لا يفيد في القراءة والكتابة والفهم، ومما قد يشغل المتعلم في أمور كثيرة التشعب تبعده عن لب المادة الذي ينفعه.

الفكرة نفسها عاد إليها مجمع اللغة العربية، إذ جاء في الوثيقة التي تقدم بها الى ندوة تيسير تعليم اللغة العربية بالجزائر ما يلي:

"إن نحونا العربي وضع لزمان غير زماننا، حين كان في وقت القوم سعة لتدارسه وإتقانه، فلم يكن يشغلهم ما يشغلنا اليوم، ولذلك حققوا ودققوا وعلقوا حتى توصلوا إلى إقامة النحو بناء متماسكا قويا محكما، ولكن السير

في مسار به متعذر إلا على القلة القليلة من الناس، ونحن لا نحتاج إلا إلى الشطر من قواعد ذلك النحو يأخذ بيدنا في قراءة النصوص قديمها وحديثها قراءة صحيحة تعين على فهم معناها أما ما وراء ذلك من تحليل وتنظير وتعليل فلا يكاد يعتني به اليوم إلا من جعل دراسة النحو غاية في ذاته لا وسيلة لتقويم اللسان والقلم ولا داعي لتعليم الطلاب قواعد لا يكادون يحتاجون إليها في قراءة النصوص قديمها وحديثها أو تلقينهم ضوابط يهتدون إليها بالسليقة.⁽¹¹⁾

وهذا الدكتور إبراهيم مدكور دعا إلى ضرورة تخير القواعد اللغوية الذي يسهل حفظها واستيعابها يقول: "ولكي تستكمل العربية أسباب انتشارها وتتوافر لها شرائط اللغة العالمية ينبغي أن نتخير من قواعد اللغة ما يسهل حفظه، وأصبحنا نؤمن بأن النحو لغير المتخصصين ليس علما يقصد لذاته، وإنما هو وسيلة من وسائل تقويم اللسان والقلم."

ومن ذلك كله نتستنج أن هناك شبه إجماع بين الكثير من الباحثين قدامى ومحدثين على أن كثرة المناهج والمباحث في النحو كانت سببا لتأفف المتعلمين ونفورهم.

فمن الضروري إذا أن نجتهد لتحقيق التيسير في تعليم النحو تيسيرا يلم بطرق عرضه وتبليغه إلى الناشئة بوسائل أكثر ملاءمة لجو العصر، أي يمس الشكل دون المضمون ويتعلق بالطرق البيداغوجية فحسب، فالمطلوب إذا هو تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلم، مع مراعاة الدوافع النفسية عند هذا الأخير مما يحفز له للانتباه والتفكير والعمل، مع الابتعاد عن الاجراءات التلقينية والقوالب الصماء التي يضطر المتعلم لتجرعها تجرعا عقيما، ومن ثمة نقول إنه لم تتوفر بعد الطريقة التربوية الناجحة لتعلم قواعد اللغة العربية، واعتماد المعلم على الطرق المختلفة وغير العلمية من شأنه أن يزيد في انحدار العربية لذلك علينا أن نهتم بإيجاد طرق جديدة تخدم العربية تعليما، وأن نهتم اهتماما جمّا بتحريك الدوافع النفسية لدى المتعلم.

والمشكلة التي نود التركيز عليها هو أننا في تحديد محتوى المناهج لا بد من أن تخضع لطرق علمية موضوعية تقرر على أساسها كتاباً دون آخر أو نختار موضوعاً دون موضوع، وأن لا نترك ذلك كما هو جارٍ في وقتنا الحالي لرغبات ذاتية وظروف عابرة ثم تظل تلك الكتب والموضوعات مقررة على الرغم من اختلاف الظروف وتغير الأحوال بحيث لم يعد ذلك الكتاب أو تلك الموضوعات ملائمة.

هذا ونود أن نشير إلى قضية هامة من الخطورة بمكان على العربية تلك هي انتشار العامية، فلا تزال هذه الأخيرة، واللهجات المتعددة إلى جانب استعمال الفرنسية في الحياة اليومية في أنحاء الجزائر تمثل مشكلة من أخطر المشكلات التي تعوق تحصيل اللغة العربية وتجهض مجهودات معلمي اللغة العربية ومدرسيها، فالتلميذ يسمع في بيئته ومجتمعاته التي يخالطها لغة يستعملها في حديثه ومعاملاته، ويدرس في مدرسته لغة أخرى.

هذا الازدواج اللغوي يشنت فكره ويضيع ما حصله في مدرسته من قدرات ومهارات لغوية، ويزيد من خطورة العامية اتخاذها لغة لبعض البرامج في أجهزة الاعلام، وتحدث بعض المدرسين بها، فهذه المشكلة الخطيرة جدية بالاهتمام ولنبدأ بالمعلمين فهم الأولى بالحفاظ على لغتهم والتزامها عندما يتحدثون إلى تلاميذهم، فعلى المعلم أن يتحدث بالفصحى ويغري التلميذ للتحدث بها.

إن اللغة العربية أمانة في رقابنا، ومسؤولية جسيمة على أعناقنا نحن أساتذة اللغة العربية، والاجتهاد لتنميتها واجب قومي، فعلياً أن نعمل على تعميمها في سائر وجوه الحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصادية مع العمل على النظر المرة تلو المرة في مناهج تعليمها لسد الثغرات، وتنقيح ما ينبغي تنقيحه على أمل الوصول إلى صيغة متكاملة تربط الأجيال القادمة بلغتهم ربطاً وثيقاً فهي رمز لكياننا القومي ومستودع لتراثنا الحضاري وهي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف فهي لغة مقدسة جدية بالعناية والاهتمام حماية للدين وإعزازاً لمكانة العرب والمسلمين.

هوامش

- (1) - النحو الوظيفي، عبد العليم إبراهيم، ص: هدار المعارف، القاهرة، مصر، 1969.
- (2) - اللغة بين القديم والحديث، عباس حسن، ص66-67، دار المعارف القاهرة 1966.
- (3) - العربية بين اللغات العالمية الكبرى، محاضرة ل: إبراهيم بيومي مذكور، النص مأخوذ عن كتاب تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية.
- (4) - أنظر مبادئ عامة في تيسير النحو، مقابل لممدوح خسارة في مجلة اللسانيات، العدد الثامن ص 29 - 30 مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، الجزائر.
- (5) - أنظر الإتجاهات التربوية المعاصرة في تدريس اللغة العربية، د. محمد رجب فضل الله، ص 189، عالم الكتب القاهرة 2003.
- (6) - أنظر الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون 1 / 91-92 مكتبة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر، دون تاريخ.
- (7) - هل النحو العربي في حاجة الى تيسير، مقال لـ التواتي بن التواتي في مجلة اللسانيات ص 35 مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية 2003، العدد الثامن.
- (8) - مقدمة في النحو، خلف بن حيان الأحمر البصري ص 33 - 34.
- (9) - أنظر دراسة مقارنة بين طرائق تدريس قواعد اللغة العربية لمحمود أحمد السيد، رسالة ماجستير، ص 1 كلية التربية، جامعة عين شمس 1969.
- (10) - أنظر تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي، لمحمود أحمد السيد ص 25.
- (11) - نحو لغة عربية سليمة، د. علي جواد الطاهر ص 50.
- (12) - اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية - ندوة تيسير تعليم اللغة العربية بالجزائر عام 1976، ص 136.